شارع ٢١٧ سابقا..!

محمد أيـــوب

الطبعة الأولى

2014 م

اسم الكتاب :	**شارع 217 سابقا**
إعداد :	**محمد أيوب**
رقم الإيداع :	2014 / 17418
الترقيم الدولي :	978-977-85107-4-4

جميع الحقوق محفوظة للناشر

ممر للنشر والتوزيع

26 ش شامبليون - قصر النيل – القاهرة (ج م ع)

محمول: +201005767172

البريد الإلكتروني: info@mmrpub.com

الموقع الإلكتروني: www.mmrpub.com

المدير المسئول

حسين الحماقي

01006674335

الأمل

للتجهيزات الفنية

شارع ٢١٧ سابقا..!

محمد أيــوب

الإهداء...

إلى . .

رئتيَّ في تلك الحياة

الحياة التي لا أمنية لي فيها سوى أن يرزقهما

الله فيها الحياة الكريمة والسعادة

(أحمد أيوب) و (مصطفى أيوب)

لعلهما في يوم ما يعرفان (كم أحبهما)

وإلى . .

(العدل) لعله يعرف لنا طريقًا يومًا ما . .

محمد أيوب

انتهاء..

بعد أن تهجد ليلًا وأدَّى صلاة الفجر في المسجد الصغير المجاور لمنزله، حمل أدوات الصيد وتوجه إلى الشاطئ سعيدًا بالهواء المنعش والسماء الصافية، وأخذ يحدِّث نفسه ماذا سيفعل بالأسماك بعد انتهاء رحلة الصيد، فهو لا يحب الأسماك، ولم يتذوق ولو سمكة من أي نوع منذ ميلاده حتى الآن.

هل يذهب بها لأي تاجر ويبيعها؟ أم يقدمها كهدية لشقيقته المتزوجة حديثًا؟ أم يتبرع بها كصدقة لأسرة معدومة هو يعرفها جيدًا؟

ارتاح للاختيار الأخير، ثم بدأت محاولات الصيد، ظل يجاهد ويحاول دون أي نتائج، أكثر من خمس ساعات انقضوا في محاولات بائسة، تسلل اليأس إليه وتذكر أنه لا يحب الصيد أساسًا، وأن كل محاولات الصيد تنتهي بنفس النتيجة، فأعاد كل شيء إلى مكانه داخل الحقيبة، وبذلك انتهت الرحلة.

عاد ليجلس في مكانه المعتاد على المقهى الشعبي، وفي حزن بدأ مراجعة قاسية لنفسه على ما فعله، أدرك الخطأ، واتخذ قراره المعتاد بعدم الاقتراب من البحر، وأخيرًا سمح لنفسه بالابتسامة حتى يتأكد أن المراجعة انتهت، وهرول إلى الملعب المفتوح لحضور اللقاء المرتقب بين فريق مدينته المجتهد وفريق آخر من مدينة مجاورة يمتلك الإمكانيات والنفوذ ورجل أعمال ينفق ابتغاءً للحصانة عبر مقعد هذه المدينة في المجلس النيابي، يصرخ وينادي ويعترض على ظلم الحكم الواضح -ويتمنى لو يستطيع لعن الحكم على الملأ- لكنه يكتفي بلعن الأسوار السلكية لأنَّها تمنعه من الاطمئنان على لاعب مدينته الذي أصيب في تصادم على الكرة، يشعر بأن الفوز يقترب، فتتصاعد أنفاسه بسرعة وهي تردد لهم الدعاء بالنصر!

ينتهي اللقاء، ويسجد على الأرض الترابية فرحًا بالفوز، فيجد أن الفريق الفائز هو المتوجه إلى حافلة نقل مكيفة الهواء ولاعبيه يتحدثون في هواتفهم الحديثة، وأعضاء فريقه يخلعون ملابسهم لردها بعد اقتراضها، ويساعدون بعضهم البعض للعودة إلى أعمالهم بسوق الخضروات.

شعر بحزن أكبر، وبدأت حالة الدوار المعتادة، وظل يسأل نفسه مندهشًا:

أين ذهب فوز فريق مدينته؟ وأين ذهب اجتهادهم وصبرهم؟ وكيف يهزمنا الظلم؟ وكيف نرتضي ذلك على أرضنا!

رفض الذهاب إلى المقهى هذه المرة، وجلس وحيدًا في مكان مهجور في أطراف المدينة، وقد عقد النية ألَّا تنتهي هذه الجلسة إلا بعد أن يتوصل لسبب ما يفعله من تصرفات غريبة وعدم التركيز وفقدان التمييز.

جلسة عاصفة انتهت بقرارات جديدة نوعًا ما لأول مرة؛ أهمها عدم مشاهدة المباريات مهما كانت، وفي طريق عودته وجد سرادقًا كبيرًا لفقيد لا يعرفه، لكنه دخل يقدم واجب العزاء، ثم عاد لمنزله وأدى صلاة العشاء ليخرج بعدها متوجهًا لأول الشارع الرئيسي ينتظر حافلة نقل العمال لورديته الليلية، لم يجد زملاءه في الانتظار، ربما لأنه قد جاء مبكرًا عن الموعد، فذهب لبائع الصحف يلقي نظرة على صحف اليوم التالي، وكالعادة لم يبتع إلا سجائر ومناديل ورقية، لم يجد زملاءه أيضًا فتأكد من تأخر الحافلة، بدأ ينظر في ساعة يده كثيرًا ويندهش من عدم حضور العمال، لعله خير، وفقد الأمل فتذكر أنه يريد يوم أجازة جديد ليرتاح قليلًا، وترك مكان الانتظار وهو يفكر كيف سيقضي أجازته؟

لاحظ أن كل الموجودين بالمقهى تصيبهم نوبات ضحك، فدخل المقهى لعله يعرف السبب، فيضحك معهم، شعر باشتياق للضحك، واجتهد ليتذكر آخر مرة ضحك فيها فلم يتذكر، بدأ يسأل دون أن ينتبه له أحد، سألهم فردًا فردًا، لا أحد يجيبه، فقط الضحك يتزايد

وبصوت أعلى، رفض أن يضحك دون سبب وغـادر المقهى، ووقف يدخن بشراهة غاضبًا مما حدث، واتجه لمحل بيع زهور، واشترى وردة بيضاء وأخرى حمراء، فوجد أن البائع أيضًا يضحك، فخرج وهو يلعن الزهور والبائع والمقهى، ثم ألقى بنفسه داخل سيارة أجرة، فسأله السائق: «إلى أين؟».

فقال: «إلى المقابر».

فضحك السائق وانصرف!

جمال

«كم عمرك؟»

"اثنان وستون".

"من هذا الطفل؟"

"أصغر أحفادي".

"ما اسمه؟"

"جمال".

ابتسم الطبيب، وربت على كتف الطفل، فابتسم الطفل له ولجده.

"كنت متوقعًا أن اسمه نفس اسمك".

"كانت رغبتي، وابني وزوجته استجابا".

"هل تعاني من أمراض مزمنة؟"

"بفضل الله، لا".

"تمارس الرياضة؟"

"كرة القدم بصفة غير منتظمة، والشطرنج يوميًّا".

"فقط؟"

"والضحك!"

ابتسم الطبيب وتركه يضحك، ونظر لحفيده وابتسم له، قبل أن يسأله: "كم الساعة الآن؟"

شعر الطفل بالإحراج، ونظر في ساعة يده، ونظر لجده بوجه تملؤه الحمرة تدريجيًّا، ثم ذهب نحو أذن جده الملقى على سرير الكشف، وقال له هامسًا:

"جدي، عندما يكون العقرب الكبير عند الرقم ٣، والصغير عند الرقم ١١، تكون الساعة الثالثة؟"

ابتسم الجد وقال له: "تكون الساعة الحادية عشرة والربع يا جمال، أنسيت ما حفظت؟!"

فقال: "عذرًا يا جدى، الدكتور جعلني أرتبك. آخر مرة، ولن أنسى مرة أخرى".

ووضع قبلة على جبينه واعتدل.

وقال للطبيب: "الساعة الحادية عشرة والربع يا دكتور".

كان الطبيب يتابع ما يحدث بين الطفل وجده ويستمع إلى الحديث

وهو مستمتع، فقال له: "لو سألتك عن الساعة مرة أخرى، هل ستطلب مساعدة جدك؟"

فقال له: "لقد وعدته بألا أنسى!"

فضحكا، واحتضن الطبيب الطفل وأعطى له عشرين جنيهًا جديدًا، ظل ينظر لجده وهو يرفضها، فنظر الطبيب للجد طالبًا منه إلقاء إشارة الرضا.

فقال الجد: "خذها من عمك يا جمال".

فأخذها الطفل وهو يضحك سعيدًا بالمفاجأة.

جلس الطبيب بجوار الجد، وهمس في أذنه أن يطلب من الطفل أن يترك الغرفة وينتظر بالخارج دقائق، ففعل الجد، وخرج الطفل.

"أنت مؤمن بالله؟"

"لا إله إلا الله محمد رسول الله، ما الأمر يا دكتور، أقلقتني؟"

"نهاية عمرك بعد ساعات قليلة!".

"أنت تمزح في أمور لا يصح فيها الهزل".

"أتكلم معك بمنتهى الجدية والأمانة".

"كيف؟".

"هذا قضاء الله وقدره".

"ونعم بالله، لكنني طوال عمري بصحة جيدة، ولم أتناول أية أدوية!"

"أعلم هذا".

"يا دكتور، هل كنت تتمنى أن تعمل ممثلًا؟ أنت مبدع في رسم ملامح الوجه ولهجة حديثك".

"أنا أتكلم معك بمنتهى الجدية والأمانة".

"بافتراض أن كلامك صحيح، لا يوجد شيء اسمه بعد ساعات ستموت، هذا كلام أفلام، وإن حدث في فيلم سيكون هابطًا!"

"ساعات قليلة وستنقطع أنفاسك وتصبح جثة هامدة!"

"إذن، لماذا لا تحاول علاجي؟ وأين أدويتك؟ وأين نصائحك؟"

"لك نصيحة واحدة فقط".

"ما هي؟"

"أن تطلب من إدارة المستشفى حجزك، حتى تموت هنا، وهذا أفضل لك، بدلًا من الموت في الطريق أثناء رجوعك للمنزل!"

"أنا في برنامج للتسلية، وهذا المشهد مسجل، وهناك جمهور سيضحك في النهاية؟"

"أنت مصمم أن تمزح. لماذا تضيع وقتك؟ ساعات قليلة وتموت!"

"لولا أنني أعرفك جيدًا لقلت أنك مجنون".

"سأقوم وأبلغ إدارة المستشفى برغبتك في الحجز".

"انتظر دقائق معي. سأقوم وأتوضأ وأصلي، ثم انصرف بعد ذلك".

"موافق. ويفضل أن تُبقي على حفيدك خارج الغرفة بعد ذلك، اقضِ ما تبقى لك من ساعات وحيدًا!"

❋ ❋ ❋

أظلم الجد أنوار الغرفة، تاركًا حفيده يلعب ويلهو خارجها بعدما أقنعه أنه سينام قليلًا لاستكمال باقي التحاليل والكشف، وترك كل بياناته في الاستقبال، ودفع تكاليف ليلة واحدة!

ظل ينظر لجدران الغرفة، أرهقه أن خياله لا يتصور أي شيء، اجتهد أن يفكر في أي شيء أو يسترجع أي شيء، لكن دون جدوى!

تعجب من نفسه، كيف يصدق عقله ما يحدث؟ وكيف أدرك الطبيب هذا؟ وكيف اقتنع هو من الأساس ورقد ينتظر الموت دون خوف؟

شعر باشتياق لحفيده، قاوم رغبته في النداء عليه والحديث معه، لكنه في النهاية استسلم وهتف باسمه، فدخل الحفيد متعجبًا، وسأله: "لماذا لم تنم حتى الآن؟ نم يا جدي من فضلك حتى تكمل باقي التحاليل ونعود للمنزل".

فقال له: "سأنام حالا".

وطلب منه أن يحرك المرآة قليلًا حتى تكون أمام السرير مباشرة.

ففعل الحفيد وخرج بعد أن ألقى قبلة طويلة على رأسه.

ظل الجد ينظر لنفسه في المرآة حتى ارتجف قلبه، فعاود النداء على حفيده، فدخل وكرر سؤاله باستهجان: "لماذا لم تنم حتى الآن يا جدي؟ من فضلك نم حتى تكمل التحاليل ونعود للمنزل!"

فقال له: "سأنام حالا".

وطلب منه أن يعيد المرآة إلى مكانها كما كانت، ففعل وخرج!

توقع (الحفيد) أن ينادي جده عليه مرة أخرى بعد دقائق، وعندما طال الوقت دون أن يأتي صوت الجد، دخل الغرفة فوجده نائمًا، فخرج يلعب حتى يأتي موعد العودة للمنزل.

شـارع ٢١٧ سابقًـا

أحـاول الهرب من إجبـار والـدتي -اليومي- على خوض رحلة الحصول على أرغفة الخبز، ورغم يقيني بأن هذا المشوار هو الأهم لسد أفواه أشقائي الصغار وأنا وأبي أيضًا، ورغم أن هذا العقاب قد اعتدت عليه، إلا أنني أحاول الهرب منه رغم فشلي اليومي أيضًا.

المحاولة لمجرد المحاولة لا أكثر!

فور خروجي من منزلنا العجوز، وجدت بضعة أشخاص يتجمعون عند طـرف المنزل، وآخـريـن غـادروا في سيارتهم من حيث أتـوا، فأقحمت نفسي وسط أبنـاء شارعنا كي أنظر إلى ما ينظرون إليه؛ لافتة حديدية زرقاء، لم أفهم المدوّن عليها، فسألت، وجاءت الإجابة بأن الحكومة قد غيرت اسم شارعنا، وأن هذه اللافتة تحمل الاسم الجديد (جابر العسكري)، وتحمل أسفله بخط أصغر الاسم القديم (٢١٧ سابقًا)، وذهلت لفرحة أهل شارعنا بهذه اللافتة فحسب، لكن فيما

بعد أدركت أن السبب الحقيقي لم يكن اللافتة، بل أن الحكومة مازالت تتذكرنا وتعترف بنا أساسًا!

هكذا قال (عم فرغلي) البقال.

بالطبع لم يشغلني هذا -الحدث الجديد- كل ما يهمنى هو الحصول على الخبز، وبدأت السير حتى اقتربت من (الخالة)، فجعلت خطواتي أبطأ متظاهرًا بالتعب والإجهاد، ومن ثم الاستراحة -ولو قليلًا- على هذا الرصيف المتهالك بجوارها، أجلس واستمتع بحيويتها وهي تقف تعمل في كبرياء وحماس أمام المنضدة الخشبية، تلقي البطاطس داخل الإناء الأسود الذي احتل الصدأ كافة أطرافه دون أدنى مقاومة تذكر، ثم تتناول البطاطس الساخنة وتضعها داخل الخبز، تبيع وترد الباقي للكادحين الذاهبين للعمل أمثال أبي، ثم تعود وتكرر قذف كمية أخرى من البطاطس داخل نفس الإناء، وهكذا.

تلمحني (الخالة)، فتعود للخلف وتأتى تلقي بين يدي نصف رغيف يحتضن تلك الأصابع الساخنة، وتبتسم وتقول لي:

«السلام أمانة للست الوالدة».

وفجأة ينتهي التظاهر ويختفي التعب -الغائب أساسًا- وأقفز من فرحتي ألتهم ما صنعته الخالة بلذة كبرى وأنا أغني كلمات لا أفهم منها شيئًا أيضًا.

وبعد انتهاء تلك النشوة تأتي كرامتي ثائرة تلومني وتنهرني، وأقرر -كالعادة أيضًا يوميًّا- عدم الجلوس بجوار (الخالة) مرة أخرى، أو رفض البطاطس منها، أو على الأقل عدم القفز والجري مسرعًا هكذا بعد قبولي البطاطس كي أتمكن من رد سلامها لوالدتي، على الأقل!

وتصفح عني كرامتي -كالعادة أيضًا يوميًّا- وأدخل المقهى العتيق، أتناول جرعة ماء من الزير الفخاري الموجود بجوار ثلاجة المياه الغازية المغرية، فيسرق (المعلم سمير أبو عفن) نشوة البطاطس ويجعل قلبي يتمزق حزنًا عندما أشاهده يركل (صديقي محمود) ويسب والده ويذكر والدته بألفاظ جنسية فاحشة، كل ذلك لمجرد تأخره!

يقشعر بدني وأنصرف لاعنًا (المعلم سمير) بداية من نصف اسمه الثاني مرورًا بنفس الألفاظ التي يواجهها لصديقي، ثم أدعو الله أن يفك كربه وأن تستمر غفوة أبي عني ولا يرسلني للعمل مجددًا مع الأسطى (جاد السمكري).

يأخذني الشارع إلى أقصى اليسار ويتركني أمام (عم يونس) الخطاط والرسام، أقف أتابعه وهو يرسم ويكتب لافتات مرشحي الانتخابات، يبهرني جمال الخطوط العربية وتناسق الألوان، رغم أنني لم أتمكن من فهم المكتوب والمقصود، لكن لذة المشاهدة تكفي الشعب بأكمله، فحين سألت أبي عن جدوى هذه اللافتات، قال أنها

مهمة للغاية، فهي الشيء الوحيد الذي يقدمه المرشحون لأمثالنا بمنتهى الرضا؛ لذلك استخدمت (الخالة) واحدة منهم كغطاء للمنضدة الخشبية!

أتمادى في النظر لـ(عم يونس)، وأترك عينيَّ تعلو قليلًا لعل (سلمى) تخرج من شباك مطبخهم وألمح شعرها الناعم، وأرسل لها ابتسامتي الماكرة، لعلها تفهم أنني أحبها!

لكن شمس الصيف الحارقة تشتد فجأة لتنذرني بتأخري عن الوصول للمخبز، وتذكرني بصفعات أمي على وجهي في حالة العودة دون الخبز، فتنتفض أطرافي وأهرول مسرعًا دون أدنى مبالاة بدخولي في مستنقع مياه الصرف الصحي، بذبابها الملازم لشوارعنا وشراييننا اختصارًا للمسافة والحياة معًا!

وتنفست الصعداء عند الوصول، وجلست -كالعادة أيضًا يوميًّا- أخلع حذائي الوحيد حفاظًا عليه من معركة الخبز الطاحنة؛ لأن والدي لن يستطيع شراء حذاء جديد لي لو تمزق هذا الذي يساعد أصابعي على استنشاق الهواء من كل الجهات تقريبًا!

الرسالة

(١)

استوقفني وأنا أهرول لتأخري عن المكتب، وبلهجة مستعطفة لا تليق بجسده الضخم ولا بمظهره الأنيق، قال لي:

«عفوًا، أنا لا أستطيع القراءة، وجاءتني هذه الرسالة على الهاتف المحمول، وأريد منك فقط قراءتها لي».

ومدَّ يده لي بالهاتف، وأخذ يدعو لي كأنه طفل يتسول، فقرأت المكتوب:

«أرجوك ترد عليا، يا حبيبي أنا بموت من غيرك، عشان خاطري ترد بس، أنا ممكن أعيش تحت تراب رجلك لو تحب، سامحني وأنا أوعدك طيب إني هاختفي من حياتك للأبد».

وبمجرد نطقي لآخر حرف، انتزع الهاتف من يدي وهو يقهقه بصوت عالٍ مصطنع، قائلًا:

«هتموّت نفسها، طب حد يقولها في داهية، لا والنبي، يقولها في ٦٠ داهية».

ثم أكمل ضحكاته المستفزة، إلى أن قطعها بتكرار نفس الجملة ونفس الضحكات!

(٢)

اعتذرت للزملاء عن تأخري، واتجهت إلى الشرفة -كالعادة- لتدخين أول سيجارة قبل الانهماك في العمل، فوجئت بأن الشاب مازال بالشارع يحَدث نفسه ويتابع بالضحك، اندهشت لما يحدث، لكنه سرعان ما عاد طبيعيًّا، حتى فاجأني إيقافه لرجل آخر طالبًا منه -بنفس الاستعطاف- قراءة المكتوب على هاتفه!

ترقبت بشغف حتى وجدت نفس الرد منه، صياح وضحكات عالية، وتعجب القارئ!

(٣)

تجاوزت السيجارة الرابعة حينما اقترب من نهاية الشارع مكررًا نفس المشهد أربع مرات، لم يكبح طوفانَ اندهاشي بما يحدث تذمرُ الزملاء من وقوفي وتعطيل العمل، وزادت حدة انفعالي عندما وجدته يصل لنهاية الشارع ويقرر الإياب!

(٤)

تعَمدت وضع نفسي أمامه، استوقفني، وبدأ حديثه -كما هو- بنفس الخضوع، فوجدني ثابتًا أنظر إليه بغضب شديد، فانتبه وارتبك، ونظر يمينًا ويسارًا، وترقرقت عيناه، فأغلق الهاتف وانصرف!

الجريمة الأولى.. !

توقف أمام البوابة الرئيسية يلتقط أنفاسه قبل الدخول، وبعد أول خطوة تراجع، فكر قليلًا، طوى شهادة التقدير الملونة ودهسها بين الكتب، استوقفه عسكري شاحب الوجه بمجرد عبوره بوابة القسم، وسأله:

«ماذا تريد؟»

«أريد مقابلة السيد مأمور القسم!»

«أنت تعرفه؟»

«لا.»

«إذن، لماذا تريد مقابلته؟»

«أمر شخصي.»

«صعب أن يقبل مقابلتك.»

«لماذا؟»

«واضح أنك طالب محترم، قل لي ماذا تريد وسأساعدك؟»

«أريد مقابلة السيد المأمور.»

«يبدو أنك عنيد، أنت تشبه أخي الصغير، ولذلك أنا أتحدث معك، ما تقوله صعب، هنا قسم شرطة وليست مدرسة».

«المأمور موظف دولة، من حقي أن ألقاه!»

انزعج العسكري من نبرة الطالب الحادة، ونظر يمينًا ويسارًا، وقال له:

«قل لي، ماذا تريد؟»

«قلت لك».

«أنت تقول أن المأمور موظف، وواجب عليه لقاؤك، وفي بداية الحديث قلت أنك تريده لأمر شخصي!»

«المأمور فرض عليه لقاء المواطنين، وليس واجبًا!»

«ارتبك العسكري خشية أن يلتقط أحد كلمات الطالب فيكون جزاؤهما واجبًا وفرضًا معًا!»

انحنى العسكري وقال هامسًا:

«رسميًا، أنت طفل، لا يحق لك حتى عمل محضر، وللمرة الثانية والأخيرة أحذرك من حدة كلماتك، هنا قسم شرطة!»

«المأمور موجود داخل القسم؟»

«لا، وتفضل بالانصراف».

«أريد عمل محضر!»

«قلت لك، لا يحق لك، أنت لا تمتلك تحقيق شخصية».

«من فضلك، قل للضابط الموجود، وإن رفض، سأنصرف».

طرق العسكري باب السيد معاون المباحث وبجواره الطالب يحمل حقيبته الضخمة، أعطاه الضابط إذن الدخول، فأخبره العسكري بأمر الطالب وإصراره على المقابلة إلى أن قال أريد عمل محضر، فأعطاه إذنًا جديدًا بدخوله.

انصرف العسكري، وجلس الطالب حتى بادره الضابط قائلًا:

«ما اسمك؟»

«مصطفى.»

«ماذا تريد يا مصطفى؟»

«أريد عمل محضر للقبض على بعض الأشخاص!»

ابتسم الضابط ساخرًا، وقال:

«اهدأ يا مصطفى، وقل لي، ماذا حدث؟»

«حدث الكثير والكثير».

«قل ما حدث، وسأساعدك».

«افتح المحضر أولًا، كي أتكلم».

أعاد الضابط ابتسامته الساخرة المملوءة بالاستهزاء، وقال:

«أنت لا تحمل تحقيق شخصية، لكنني سأستمع إليك وسأساعدك، هذا وعد مني يا أستاذ مصطفى!»

تجاهل الطالب الابتسامة، وأقنع نفسه بصحة موقفه الضعيف بعدم وجود تحقيق شخصية، واستمد من هدوء الضابط وكلمة (أستاذ) ثقة وطمأنينة جعلته يقرر أن يتحدث، وقال:

«يا سيادة الضابط، أنا أريد عمل محضر في مدرس الرياضيات، ومدير المدرسة، وجاري الحاج عباس أبو المعاطي، وأبي!»

اندهش الضابط من ثبات الطالب، وقاده فضوله للصبر حتى يُخرج الصبي كل ما لديه، لعل وعسى، وبهدوء قال:

«قل لي، ما هي جريمة كل شخص على حدة؟»

«سأقول، أنا لا أخاف!»

«ما هي جريمة مدرس الرياضيات، وما اسمه بالكامل؟»

«اسمه فؤاد الجندي، وله جريمتان وليست جريمة واحدة».

«ما هما؟»

«مدرس الرياضيات يتعمد صناعة الجهل فينا، يأتي لنا يوميًا بنظريات معقدة ومسائل صعبة تجعلنا نكره التعليم ونكره الحياة، هو يقصد إذلالنا بغباء يصنعه هو بداخلنا، ليقف هو بصلعته يتباهى بعمله الفذ، ومقابل ذلك يجبرنا على دفع إتاوات نظير تسطيح عقولنا بشيء يُسمى (دروسًا خصوصية)، أنا تكلمت معه في كل هذا من قبل، فقال لا بد أن تكونوا جهلاء، وهذا اعتراف منه يا سيادة الضابط، أرجوك اقبض عليه، وهذه هي الجريمة الأولى!»

«وما هي الجريمة الثانية؟»

«ما يفعله مع نوال مدرسة الرسم من أشياء!»

«ما هي تلك الأشياء؟»

«أشياء كلها حرام، وقلة أدب! أنت أكيد تعرف ماذا أقصد، الأفلام تمتلئ بأشياء من نفس النوعية!»

«قل لي بالضبط، ماذا يحدث بينهما؟»

لا أعلم إلا شيء واحد رأيته أكثر من مرة مع الكثير من الطلبة».

«ما هو؟»

«شيء قذر جدًّا!».

«وكيف رأيته أكثر من مرة، ومع كثير من الطلبة؟!»

«اعتاد مدرس الرياضيات أن يذهب إليها في غرفة التربية الفنية

وهي تجلس وحيدة عقب نهاية اليوم الدراسي، ويغلقا الباب لمدة دقائق، ثم يخرج هو أولًا، بعد ذلك تخرج هي!»

«وكيف رأيتهم؟»

«ذات مرة، رأى زميل لنا من جزء مكسور في الباب ما يحدث، فقال لنا، ذهبنا نشاهد ما يحدث، ومن وقتها وأصبحوا يترقبون مشاهدة مدرس الرياضيات ذاهبًا تجاه غرفتها، وبمجرد غلق الباب يهرولون لمشاهدتهم معًا. أنا لم أذهب معهم سوى تلك المرة».

«لأهمية ذلك القصوى في المحضر، لا بد أن تقول لى ما حدث بينهما بالتحديد في غرفتها؟»

«حشرت مدرسة الرسم نفسها بين السبورة ودولاب الأدوات، كانت مستسلمة، وكان يقبلها في شفتيها ويده تفك أذرار بلوزتها، ولم أكمل المشاهدة وانصرفت!»

«هذا كل ما تعرفه؟»

«نعم».

«هذا مهم للقضية جدًّا».

«قلت ما أعرف».

«متأكد؟»

«نعم متأكد، المهم أن تقبض عليه، ويكون عقابه على الجريمتين،

الجهل والفاحشة يا سيادة الضابط».

«ما هي جريمة مدير المدرسة؟»

«مشترك مع مدرس الرياضيات!»

«يذهب المدير لمدرسة الرسم ويفعل مثله؟!»

«لا».

«إذن، أين هي جريمة المدير التي يشترك فيها مع مدرس الرياضيات؟»

«في الجريمة الأولى يا سيادة الضابط، مدير المدرسة يرعى تغييب العقول ويشرف على وأد الفكر والمواهب، ويأخذ جزءًا من كل إيراد الدروس الخصوصية من كل مدرس، لماذا يفعل المدير هذا يا سيادة الضابط؟ ولا تتعجب من كلامي يا سيادة الضابط، أنا في الصف الثالث الأعدادي، لكنني بفضل الله مدرك كل شيء، أنا فاهم كل شيء!»

للحظات، تسرب الشك للضابط في مدى صحة عقل هذا الصبي، لكنه فضل أن يكمل، لعل وعسى!

«وما هي جريمة عباس أبو المعاطي جارك؟»

«يلعب القمار في شقته، ويترك شباب الشارع يزورون ابنته فى نفس الشقة، لكن في غرفة أخرى!»

«من قال لك هذا؟»

«أنا أرى ذلك من نافذة غرفتي يوميًا، هم في البيت المقابل لنا، ولكن نحن في طابق أعلى، الأب يترك نافذة غرفته مفتوحة وهو يلعب القمار، وابنته تترك جزءًا من نافذة غرفتها مفتوحة وهي تلعب مع شباب الشارع على فراشها!»

ابتسم الضابط من براءة الطالب وانشغال عقله بأشياء كثيرة ساذجة!

استأنف الضابط، وسأله:

«تريد عمل محضر في أبيك؟»

«نعم».

«وهل هذا يصح؟»

«نعم».

«لماذا؟»

«لأنه أخطأ، ولا بد أن يأخذ عقابه!»

«ما هو خطأ أبيك؟»

«لأبي أخطاء عديدة، وليس خطأ واحدًا!»

«ما هي تلك الأخطاء؟»

«سأقول خطأ واحدًا حتى لا يكون العقاب قاسيًا عليه، هو أبي وأنا أحبه!»

ابتسم الضابط، وقال:

«قل خطأ واحدًا؟»

«لم يقاوم هؤلاء وتركني لهم!»

اندهش الضابط، لكنه كان قد سئم هراء الصبي، فقال:

«شكرًا يا مصطفى، سأسجل كل ما قلته وسأتخذ اللازم، تفضل بالانصراف».

«لكنك لم تكتب شيئًا، ولم تصدر أمرًا بالقبض عليهم».

«كل هذا سيحدث، لا تقلق، لكنه سيأخذ وقتًا، تفضل بالانصراف يا مصطفى».

«لن أنصرف!»

انفعل الضابط، وارتفع صوته، فهرول العسكري الرابض خلف الباب، وأخذ الصبي من يده وأخرجه بالقوة، وعند باب القسم سأل الصبي (العسكرى) قائلًا:

«متى سيأتي المأمور كي يساعدني في الجريمة الأولى على الأقل!»

فهل سيأكلها الآن..؟!

خرج متسللًا من هذا الزحام المفاجئ، ووقف أمام الباب الخشبي المتهالك، الذي يراه للمرة الأولى يفتح ذراعيه للحياة هكذا، وأخذ يمعن النظر في تلك الوجوه المكفهرة، لعله يجد سببًا لهذا الهواء الملبد بالحزن واللون الأسود، لكن سقوط (طاقيته) الجديدة عن شعره الذهبي الناعم جعله يجري مسرعًا نحو صالون الحلاقة المجاور لمنزله ويستغل إغلاقه للصلاة، ووقف أمام زجاجه العاكس ليتمكن من إعادة ضبط (الطاقية) كما كانت، ثم أكمل طريقه إلى المسجد وحيدًا -للمرة الأولى- ولكن بخطى بطيئة حفاظًا على (جلابيته) البيضاء الجديدة من الشارع المتسخ من اختلاط المطر الغزير بقمامته الكثيرة، وصل لباب المسجد، وضع حذاءه في نفس المكان المعتاد -في الرف الثاني أقصي اليمين- ليضع بعد ذلك يديه في جيوبه الممتلئة حتى لا تحدث صوتًا، واصل السير بين المصلين متقدمًا للمنبر، رافعًا

رأسه بشموخ كأنه قائد كبير يتفقد الصفوف الساكنة، وصل للنصف الأول من المسجد المزدحم، فتوقف بشكل مفاجئ، وأخرج من جيبه -أول قطعة حلوى- قذف بها رجلًا أربعينيًّا يجلس يساره، فأفزعته، وانتفض، وحاول معرفة ما حدث، فبحث بعينيه فلم يجد إلا سكون واهتمام المصلين وطفلًا صغيرًا يسير إلى الأمام، فيباغته -الطفل- بنظرة تقطع حيرته وابتسامة تؤكد أنه الفاعل، فيفهم الرجل ويرد بابتسامة أكثر عذوبة، يكرر الطفل نفس الفعل ويأتي نفس الرد من معظم المصلين، حتى يصل إلى جده العجوز في الصف الأول، بمجرد رؤيته تتجدد دموع (الجد) ويحتضنه بقوة، يهرب الطفل ويتقدم ويلقي بآخر قطعة حلوى داخل الصندوق الأخضر المستطيل الموجود بين أحضان المنبر، وخلفه الإمام يستعد لبداية الصلاة، يجذبه (الجد) المنهار ويطلب منه الوقوف بجواره، فيبتسم الطفل ويسأله:

«يا جدي، كنت أدخر آخر قطعة حلوى لأبي، ووضعتها له في الصندوق الأخضر، فهل سيأكلها الآن؟!»

عند محطات الظلم..!

أطنان من اللامبالاة سكنت جوارحي فجأة، لا أدري كيف؟ كأنني شخص ضعيف يستسلم للهزيمة، كنت شخصًا لا أعرفه ولن أسامحه عندما أدركت أنني منذ دقائق فقط تلقيت اتصالًا هاتفيًّا منها، وأنها طلبت لقائي، وأنني وافقت..!

وجدتني ساكنًا أحتاج تفسيرًا لما حدث، أمازال هاتفي يحمل اسمها طوال هذه السنوات دون أن أشعر!

وكيف غيبت عقلي عندما اتخذت قراري بالرد عليها، صحيح أن للحياة قوة خفية تصنع منا آلات تسير، وأن صدمات الأيام تنتزع منا الإحساس، لكن هذه ليست مبررات تشفع لي، هذا هراء. ينبغي عليّ الآن أن أبحث عن طريقة أتقدم من خلالها بشديد الاعتذار لأذني!

لقد جعلتها تتألم وتستمع لصوت مقزز سبّب لي الكثير من الوجع سابقًا!

أجلت الاعتذار حتى لقائي بها، غالبًا ستكون اعتذارات، إذن فلتكن معًا.

تعمدت أن أذهب أولًا، كانت فرصة للاستمتاع بهواء البحر النقي، وفرصة لمراجعة ولو جزء من روايتي الجديدة قبل النشر، وفرصة لاسترجاع ذكرياتي معها في نفس المكان.

لماذا اختارت نفس المكان ونفس التوقيت الصباحي؟!

لم أجد إجابة واضحة، طردت السؤال، واخترت الاستمتاع بالهواء فقط.

جاءت تقريبًا في الموعد الذي حددته -لماذا تركتها تحدد مرة أخرى؟- ألقت التحية وجلست أمامي، وجدتني مسرورًا لأنها لم تمد يدها للمصافحة -لا داعي لاعتذار جديد بعد أذني وعيني- وبصعوبة انتزعت من فمي رد التحية، بل واجتهدت كي يأتي مصحوبًا بابتسامة مصطنعة كي تكتمل الصورة.

اختفت نضارة وجهها الأبيض الصبوح، كان جليًّا أن التجاعيد قد احتلت بشرتها منذ سنوات، لدرجة أن هذا الكم الفج من مساحيق التجميل قد فشل فشلًا ذريعًا في إخفائها، حتى عينيها فقدت بريقها ووقعت أسيرة بين هالات سوداء.

رأيتها مختلفة مظلمة بشكل أحزنني عليها، ثديين متهدلين بشكل

مؤسف، طبقات من الدهون جعلت منها شيئًا ضخمًا لا يروق لي رؤيته، عجيزتها تضخمت وتكوّرت، بل وجاء ارتفاعها مماثلًا لارتفاع الأسعار!

كان واضحًا أن السنوات نالت منها الكثير، وواضحًا أيضًا أنها مثل كل بنات حواء -خاصة المرأة العاملة- ترفض الاعتراف بهذا وتتشبث بالشباب والتصابي، اعتراضها جاء في ملابسها غير اللائقة، وفي ألوانها الزاهية، وفي حلي كثيرة في يدها وعلى صدرها المترامي.

لماذا تتشدقين بسنوات انتهت وطردتك منها؟ وكيف تسمحين لنفسك أن تبدو كالمهرج بكل هذه المساحيق؟ ومن أقنعك بأنك ستعودين صبية بتلك الملابس وبهذه الألوان؟!

نجحت في وأد الأسئلة، اكتفيت بالرثاء سرًّا، بضع سنوات فوق الأربعين فعلت بها كل هذا؟!

حقًّا، القوة العظمى هي الأيام!

بعد الأسئلة الروتينية المعتادة، قالت:

«سعيد مع زوجتك؟»

«بفضل الله، نعيش حياة جميلة».

«وأبناؤك؟»

«هم وزوجتي والقراءة كل حياتي».

«قلت لهم تجارب شبابك؟»

«بالتأكيد».

«يقرؤون ويكتبون مثلك؟»

«(كريم) ختم حفظ القرآن، و(ياسر) فاز بالمركز الأول في شعر الفصحى».

«وزوجتك؟»

«أهم ناقد لكل ما أكتبه».

«سعيدة جدًّا بنجاحك».

«أشكرك».

«رواياتك رائعة وتحمل رسائل وممتعة».

«أشكرك».

«لماذا لا تواظب على كتابة المقالات في الصحف؟»

«أواظب»

«أنا متابعة جيدة، لا شيء يُنشر لك من فترة طويلة».

«أنا أكتب، هم لا ينشرون».

«انتقادك الحاد للحكومات سبب عدم حصولك على جوائز».

«لا تعنيني الجوائز، أنا فخور بما أكتب».

«أعرف ذلك، لكنني أخاف عليك!»

«أشكرك لشعورك الطيب، لا شيء يدعو للخوف».

«قلمك كفيل أن أخاف عليك!»

«أنا لا أمتلك شيئًا غيره، كي أساهم به في صناعة وطن يملؤه العدل والعلم والجمال».

«أنت مازلت تحلم؟»

«الحلم الدليل الوحيد أنني مازلت حيًّا».

«إعجابي بك كما هو».

«أشكرك».

«لماذا لم تطلب شايًا كما تحب؟»

«لا أريد».

«هذه الأوراق، الرواية الجديدة؟»

«نعم».

«قل لي عن أي شيء تتحدث؟»

«قريبًا ستكون في المكتبات. معذرة «.

«مازلت ترفض الحديث عما تكتب قبل النشر؟»

«نعم».

«هل يمكن أن تكتب لي إهداء على كل رواياتك؟»

«هل هذا سبب اللقاء؟»

«لا».

«ما هو السبب؟».

«رسائلك!»

«ماذا تقصدين؟»

«لماذا لم تطلب شايًا؟»

«ماذا تقصدين برسائلي؟»

«ابنتي الكبرى، بعدما كانت متفوقة في الدراسة، تبدل حالها فجأة، بدأت بالتدخين سرًّا، وصارت عصبية بشكل حاد، وصل بها الأمر أنها تسبني وأباها علنًا!»

قطع الحديث رجل وزوجته، صافحني الرجل بحرارة، وقال لي: «في انتظار عملك القادم»، شكرته، فأعطى هاتفه لها وطلب منها التقاط صورة له وزوجته معي ثم انصرف.

«معذرةً».

«لا شيء، أقدر أنك كاتب مشهور، هذا يجعلني سعيدة، أتتذكر كيف كنا نحلم معًا بهذا؟»

«طوال عمري أحلم بمفردي، واجتهدت كي أكمل وأدافع عن حلمي بعدما وثقت في أشخاص خانوا الحلم ورحلوا!»

«آسفة».

«من فضلك، لا وقت لديّ، أكملي، ما هو سبب اللقاء؟»

«حاولت مع ابنتي كثيرًا، ذهبت لأكثر من طبيب، لا شيء عضوي، هي منتهى الاتزان، لكنها تكره كل شيء حولها..».

أخرجتُ ورقة وكتبت، توقفتْ عن الحديث، فأشرت لها أن تكمل.

«....وابني الأصغر مازال يعاني من..».

رفعت رأسي وتركت القلم واستوقفتها بصوت حاد، قائلًا:

«ما المطلوب مني تحديدًا؟»

«تساعدني».

«كيف؟»

«قل لي الحقيقة!»

«عن أي شيء تتحدثين؟»

«عن رسائلك».

«من فضلك المزيد من الوضوح، لا وقت لديّ أضيعه في ألغاز!»

«من سنوات طويلة قلتَ لي أنني ظلمتك، وانتهت علاقتنا على جملة: (حسبي الله ونعم الوكيل)».

«قلت لكِ، لا وقت أضيّعه في مناقشة ما حدث من سنوات، ما

المطلوب لمساعدة أبنائك؟»

«لا أنكر أنك كنت تحبني وأنك كنت مخلصًا وأنك..».

«لا داعي لهذا الكلام».

«هذا ما جئت إليك من أجله!»

«هذا موضوع دُفن منذ سنوات طويلة».

«منذ افتراقنا وأنا اشعر بظلمي لك، أنا لا أنكر هذا، كان عزائي أن ما فعلته هو الصواب لك ولي، رأيت حياتك تنهار بسببي في البداية، لكنني كنت مقتنعة بما فعلت؛ لذلك لم أهتم بقصتك معي من الأساس، ولأني أعرف جيدًا شخصيتك العنيدة الطموحة كنت واثقة أنك ستجتاز الصعوبات وتنجح، وأعترف أنني لم يعد يعنيني شيء إلا مستقبلي، وإن كنت أتمنى لك السعادة والتوفيق، أنا أخطأت في حقك كثيرًا وظلمتك».

«لآخر مرة أقول لكِ، لا داعي لهذا الحديث وإلا سأنصرف!»

«أرجوك، اتركني أكمل، آخر كلمة منك لي كانت (حسبي الله)، ما أراه في أبنائي يؤلمني، وكل أملي أن يتقبل الله دعائي وتعود أسرتي كما كانت، جئت إليك لأنني أعتقد أنك مازلت لم تسامحني، وأن ظلمي لك سبب ما يحدث، سامحني أرجوك».

«انتفض قلبي فزعًا مما قالته، وساد الصمت لدقائق».

قلت: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

قالت: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

لماذا تأتي أهم لقاءاتنا عند محطات الظلم..؟!

قلت: «قسمًا بـالله، لم يحمل قلبي شرًا لأي إنسان، حتى من ظلموني، وأنتِ مازلتِ عندي الأغلى، وأدعو لكِ حتى الآن..».

قالت: «متأكدة..».

ثم انهارت في البكاء...

الكوخ

هربًا من ركلة بالزلط واستهزائهم به، يظل قابعًا داخل كوخه الصفيحي المتهالك حتى يطمئن أن كل الأطفال داخل المدرسة، ويتأكد بنظرة أخيرة من ثقب -الكوخ والسور معًا- فيرى أن بوابة المدرسة تم إغلاقها.

يخرج حافي القدمين، يحمل جسده الأسود طبقات عديدة من العفن، يتوقف قليلًا أمام بركة الصرف الصحي المجاورة للمدرسة، يرفع جلبابه المهترئ ويغوص فيها مستمتعًا، وتنفك أسارير وجهه، ثم ينحني يملأ يده ماء من الأرض ويسكب على رأسه، فتختفي قطرات الماء في شعره الطويل المتشابك مع كتل العفن والحشرات، ويكرر ما يفعله حتى تبتل رأسه فيصرخ فرحًا كأن نشوته قد اكتملت!

❊ ❊ ❊

يترك (البركة) منتشيًا ليبحث عن إفطاره، يتحسس السور بحثًا عن اللقيمات المتبقية من الأطفال -كما اعتاد- ويجمعها في كيس يجتذبه من الأرض، ثم يهرع إلى صندوق القمامة الكبير فيجد كل ما لذ وطاب، فيملأ الكيس ويهم بالرجوع قبل انتهاء طابور الصباح.

❊ ❊ ❊

يكاد ينتفض وهو ينظر للعلم يرفرف.

داخل المدرسة، يلقي طالب بصوت جهوري تحيته للعلم ويردد خلفه باقي الطلاب -وهو- خارج المدرسة، يرتعش وتترقرق عيناه حتى يتم سحب العلم تدريجيًا لأسفل.

❊ ❊ ❊

في ذلك اليوم، ظل قابعًا داخل كوخه متعجبًا عدم مجيء الأطفال، خرج يستطلع ما يحدث، فتعجب مجددًا من اختفاء مياه الصرف الصحي، انشطر قلبه خوفًا، وصُعق لاختفاء صندوق القمامة، وشعر بدوار خفيف، أمعن النظر حوله فوجد رجالًا ونساء يرتدون ملابس أنيقة ولافتات كثيرة وملونة ومضيئة تحيط بأسوار المدرسة، نظر للعلم لعله يرفرف، فوجده مستكينًا غارقًا في نومه.. فبكى!

❊ ❊ ❊

اللافتات المنتشرة تحتوى على صور لوجوه؛ منها العابس ومنها

المبتسم، العامل المشترك في كل اللافتات وجود العلم فيها زاهيًا.

انتزع عددًا من هذه اللافتات، وذهب لباب المدرسة الرئيسي وجلس متربعًا يستقطع من كل لافتة صورة العلم ويلقي بباقي اللافتة خلفه، يمعن النظر للعلم ثم يمزقه لقطع صغيرة يلقي بها داخل فمه ويبتلعها دون مضغ!

دون إشارات للمرور.. !

أمسك يدها ليعبرا الطريق معًا وقلبه تتسارع ضرباته، ويخفق بشكل جعله ينتفض وجعلها تمعن النظر في عينيه، حتى وصلا إلى الحديقة التي لا يدل على أنها نشأت من الأساس إلا بقايا الشجيرات، وبقايا المقاعد الرخامية.

كان قد اتخذ قراره بمصارحتها بما يحويه قلبه، وكانت تعلم وتستعد.

تلعثم عدة مرات، فتحدث عن خبرته في بيع المناديل الورقية في إشارات المرور، والمراوغة والهروب من رجال المباحث، وعن رفضه العمل في المخدرات ذات الربح الأكبر والأسهل.

ظل يتحدث كأنه بطل أوليمبي أحرز ميدالية ذهبية يُحتفى به في برنامج (توك شو)، وهي مازالت ترنو إليه بإعجاب، إلى أن استجمع قواه، وتوقف هنيهة، ثم اندفع قائلًا:

«ستعملين معي في إشاراتي، أبيعُ أنا كل الكميات، ونقتسم الربح، إلى أن أتركك على باب منزلكِ وأعود في الصباح كي نبدأ العمل..».

توقف واستطرد مسرعًا:

«من اليوم أنتِ لي فقط، أنا أحبك!»

❋ ❋ ❋

نهضت من حضنه بصعوبة، ومسحت شفتيها بمنديل ورقي، وعَدلت ملابسها، بعد أن أفرغا أول جرعة حب لهما خلف تلك الأشجار المحطمة، وبعد اتفاقهما أن يذهب هو لأبيه ليبلغه بأمر حبهما، وأن تذهب هي لأمها وتخبرها بما قررته.

❋ ❋ ❋

ذهب لأبيه المقيم في تلك الحديقة الفاخرة بجوار ذلك المبني السيادي الهام، وجده يجلس صامتًا ومعه حبل سميك أبيض اللون يحاول أن يربط قدميه!

ظل ينادي على أبيه وهو غارق في صمته ومحاولة الربط، جلس بجواره وربت على كتفيه فدفعه بعنف، واستمر في الربط، انقبض قلبه على أبيه وقام مذعورًا يخبرها بما حدث.

❋ ❋ ❋

وجدها تبكي وتصرخ وهي ترى أمها على قارعة الطريق الرئيسي، وشعرها قد انسدل على عينيها، وهي تحاول ربط حجابها الأسود على صدرها بعنف كأنها تعصر نهديها.

❋ ❋ ❋

ضمها إلى حضنه وانصرفا إلى إشاراتهما، مازال قلبه منقبضًا، وهى مازالت تبكي!

اعتراض

وقف -مبتهجًا- يلتقط أنفاسه بعد أن استطاع -بمعاناة شديدة- أن يجر العربة الخشبية إلى هذا الموقع المميز أمام ذلك المبنى الشاهق الأنيق، ووسط هذه الجموع من البشر.

ارتاح لتجاهل الجميع لصبي صغير مثله، كان قد توقع ذلك، ثم خلع حذاءه ومشى حافيًا بين هذا الكم الغفير، واضعًا يديه في جيوب بنطاله المتسخ، يرمق الجميع وكل ما يحدث بنظرات صامتة متعالية، ثم عاد لعربته وأخرج منها زجاجة مياه وأفرغ كل ما فيها على رأسه حتى ابتل جسده الضئيل بالكامل، وألقى بالزجاجة الفارغة على الأرض، ثم تسلق العربة بخفة، ووقف عليها منتصبًا وسط (الترمس وأم الخلول واللب بأنواعه) وكرر نظراته المتعالية الساخطة، ثم فتح الكاسيت ذا السماعات الضخمة، لتنطلق منه أغنية هي قمة البذاءة بصوت متحشرج أقرب للتقيؤ من الغناء.

التفت إليه الجموع المحتشدة، فوجدوا صبيًّا صغيرًا يرقص على عربته ويضحك بهستريا، فتعجبوا!

يستمر في الرقص والضحك والإشارات الإباحية، ويتقدم إليه عدد كبير يستكشفون ما يحدث، فيفاجئهم بخلع قميصه المبتل وإلقائه عليهم، ويكمل الرقص نصف عارٍ، يغضب البعض ويراه البعض الآخر مسليًا وهو مازال يضحك ويرقص!

شعر باقتراب انتهاء الأغنية، ولمح اقتراب كثيرين منه للإمساك به، فأيقن أنه الوقت المناسب.

تركهم يقتربون منه والشرر يتطاير من أعينهم، وترك بنطاله يسقط تاركًا لشلال البول المتدفق منه مهمة حسن استقبالهم والدفاع عنه إن لزم الأمر، واستمر هو في الضحك والرقص!

إيه يا بلاد يا غريبة؟!

إهداء لصديق عمري، المخلص/ محمد يحيى زكي

بالأمس، كان يشرح لزملائه -بنادي الكاميرا- مشروعه التصويري التأريخي لكل معالم مدينته، أحباله الصوتية -وروحه- تألمت كثيرًا وهو يتجرع الحقيقة، قائلًا:

«مدينتنا المظلومة تحتاج للبوح ولو بصور صماء تكتم حزنها كالعادة، فلنشكر الوطن على سعة صدره، ونبدأ من الغد رحلة تصويرية لكل المناطق الفقيرة ومشاهد البؤس والمنشآت التاريخية، من حق مدينتنا أن يراها الجميع في بكائها الحقيقي وليس في بهائها المزيف كما يريدون».

عقب انتهائه من الشرح، سألته زميلة: «أمازلت تحب البلد التي تقاعست في علاجك حتى فقدت إحدى عينيك بشكل نهائي؟»

قال: «حتى لا يفقد غيري عينه، لا بد أن نحب الوطن».

قالت: «أتعجب من إصرارك، وعدم إصابتك باليأس؟»

قال: «اليائس إنسان يعيش بيننا، لكنه في تعداد الموتى، أنا مازالت حيًّا!»

❊ ❊ ❊

اليوم، ملقى به في زنزانة غير آدمية بتهمة تصوير منشآت حكومية، كأنه نهب المال العام أو احتكر سلعًا حيوية أو استورد مواد مسرطنة أو قام بتزوير الانتخابات.

شعر بالإهانة والذل وبكى.

لماذا نحب وطنًا يمقتنا؟!

لماذا نعشق ويلعننا؟!

لماذا...؟!!

ينزعج ضابط القسم وجنوده من صراخ قوي يقلق راحته ويقطع عذوبة أغاني فيروز، ويرغمه الصوت المتزايد على الذهاب إلى الزنزانة.

تحتضن يده الباب الحديدي للزنزانة، وعيناه تملؤها حمرة الغضب، وصوت مشروخ -منحته الدموع صلابة- يغني باكيًا.

«إيه يا بلاد يا غريبة..

عدوة ولا حبيبة..

في الليل تصحى عيونك..

ونجومك مش قريبة..

بلاد ما عرفش ناسها..

ولا عرفاني بيبانها..

ومالیش شبر في أساسها..

ولا طوبة في حيطانها..

وخطاويا غريبة..

إيه يا بلاد يا غريبة..؟!»

❋ ❋ ❋

يضحك الضابط في سخرية، ويأمره بالتوقف عن هذا الصراخ -بعد أن قذفه بوابل لا مثيل له من الشتائم القذرة- فيزداد صوته انكسارًا وارتفاعًا، متجاهلًا الأمر والإهانة. يكرر الضابط الضحك والسباب وينصرف بعد أن ألقى تعليماته لجنوده بالدخول لتهدئته!

❋ ❋ ❋

في الصباح، يتم إجباره على التحول من بقايا جسد ملقى بجوار حائط نتن كي يذهب إلى النيابة للتحقيق معه في جريمته؛ التصوير،

مضافًا إليها -تهمة الأمس- محاولة الاعتداء على أفراد شرطة وإهانتهم وإثارة الشغب داخل السجن!

❊ ❊ ❊

مازال يصرخ ويرسل صوته من ثنايا سلك عربة الترحيلات..

«إيه يا بلاد يا غريبة..؟!

عدوة ولا حبيبة..؟!»

❊ ❊ ❊

الأغنية للفنان (محمد منير)

كلمات الشاعر (سيد حجاب)

ألحان الموسيقار (هاني شنودة)

صدرت في ألبوم (علموني عنيكي) عام ١٩٧٧م

الخيار

يجلس بخنوع تاركًا أشعة الشمس الحارقة تنهال على ملامحه الصعيدية البائسة، وهو أعلى صندوق فارغ لأحد أنواع المياه الغازية، وأمامه صندوق آخر يعلوه قطعة خشبية مستطيلة، يلتقط من الإناء الموجود على يمينه (الخيار) ويجففه من لزوجة الماء بمسحه جيدًا في بنطاله المتهرئ والمتسخ، قبل أن يلقي به على القطعة الخشبية ليفتك به محولًا إياه إلى أربع شرائح طويلة، ثم ينقض عليها مجددًا بنصل السكينة اللامع لتصبح قطعًا مربعة صغيرة، مكونًا بذلك الجزء الأول من (السلطة).

ظل يكرر ما يفعله في حنق المغصوب وضيق المبتدئ غير المتمكن.

عند التقاطه لواحدة من (الخيار) وقعت منه على الأرض المرصعة ببقع من زيوت السيارات، فارتجف خشية أن يراه (المعلم)،

فالتقاطها مجددًا من الأرض وألقاها في الإناء وأخرجها ومسحها في بنطاله وأكمل، كأن شيئًا لم يكن!

خوفه من بطش (صاحب عربة الفول) جعله يهتز ويرتبك، فتكرر وقوع (الخيار) على الأرض مرات عديدة.

❋ ❋ ❋

أمـام (العـربـة) كـان يقف رجـل أنيـق المظهر يتابع مـا يحدث (للخيار)، وتقزز عندما رأى أن الإناء -الذي من المفترض أنه يحوي خضروات- بات أقرب لبئر بترول، فغادر المكان متأففًا.

قرأ (المعلم) تعبيرات وجه هذا الرجل، فعاود النظر خلفه على الصبي الجديد، وشاهد ارتباكه ووقوع الخيار، فجن جنونه، وانهال عليه بسباب فاحش متناولًا عرض أمه، ثم ركله في وجهه، فوقع الصبي على الأرض ومعه الإناء، وافترش (الخيار) الأرض المرصعة ببقع زيت السيارات ومعه الصبي والسكينة!

❋ ❋ ❋

المتجه إلى القرية الذكية يلزم اليمين!

حليمًا.. كان!

(١)

كأنها على مسرح عملاق تؤدي دورًا هامًّا أمام جماهير غفيرة، لم تكن الصعوبة أنها تتعرض لأول مرة لحدث مثل هذا، إنما في يقينها أن شيئًا سيحدث، انقباض القلب هكذا يربك ويؤلم، بل ويؤكد.

نظرت إليهن وقالت: «دقائق وستكون ملابسك جاهزة، سأنتهي حالًا من الكي».

وهو مازال إليها باسمًا هادئًا دون أن يتحدث.

(٢)

تتساقط دموعها على ملابسه وترتبك، ينهض والده من خلفها ويختلس نظرة من بعيد فيجده مازال باسمًا هادئًا رقيقًا -أكثر من المعتاد- فيربت على كتفها، وكأنه يقول لها (خيرًا بإذن الله)، يقول

ويتحامل مع أنه مثلها يرى الألم يتوحش داخله وهو يحاول الاختباء خلف هذه الابتسامة البريئة الصافية.

(٣)

على ضوء ضئيل يجلس في مكتبه الصغير، ينظر ويتأمل بعض ما تحتويه ذاكرة الأيام؛ صور قديمة لأصدقاء الدراسة، وشمعة صغيرة داخل غلاف أحمر اللون، وشهادته الجامعية الصماء!

ظل يضحك ويضحك، ربما مما شعر به عندما قرأ بعض مذكراته الطفولية، وربما لأنها تشعر به.

ونهض على أن يعود لإعادة ترتيب هذه الصور والأفكار.

(٤)

يرفع يده اليمنى ويضعها على قلبه يتحسس نبضه ويعيد الضحك، الألم يكاد يفتك به، لكنه لن يصرخ، هكذا قرر، بالابتسامة سأنتصر عليك أيها المرض. ارتاح كثيرًا عندما أخبر صديقه برؤيته للرسول الكريم في منامه، كان سعيدًا يبتهج وهو يؤكد له أن رسول الرحمة ضمه لحضنه وابتسم له، قال له: «ستكون معي، اطمئن».

يتألم صديقه وتتساقط دموعه هو الآخر من خلف الشاشة العقيمة. هو يتحدث ليرتاح ويلقي إليه بالوصايا، والآخر يكاد يطعن الشاشة.

انقباض القلب هكذا يربك ويؤلم، بل ويؤكد.

(٥)

صورة سوداء بها خط متعرج، طالب السماح إن اعتدل هذا الخط.

(٦)

مازالت الملابس جاهزة بعد انتهاء الكي، مازالت الصور تنتظر إعادة ترتيبها، لكن الخط في الصورة لم يعتدل.

بين اللامعقول واللاموجود

قبل أن يستقل سيارته ذاهبًا لعمله، وقف متعجبًا حالة الهدوء والسكينة، وعندما انتهى من تدخين سيجارته بدأ يمعن النظر أثناء سيره، مندهشًا من نظافة الشوارع والأسوار، وانتظام حركة المرور، وعدم وجود ضجيج، وخلو الأرصفة من الباعة، حتى اصطدم بسيارة تسير أمامه فوجد ضباط المرور يحاصرونه ويقومون بنقل السيارة لفحصها وإعادة الكشف على بصره.

وصل لمقر عمله غاضبًا مكفهر الوجه، وظل هكذا حتى موعد انتهاء العمل، يلعن الضباط والدولة والغباء، واضطر للعودة في المواصلات العامة فعاد يتعجب مجددًا من نظافتها، وآدميتها، وسرعان ما أهمل التعجب منشغلًا باحتكاكه المتعمد بالفتاة الجميلة الجالسة بجواره بعطر فواح وملابس ضيقة تبرز نهديها.

وعند باب منزله وجد شخصًا -تبدو عليه علامات الثراء- ينتظره

طالبًا منه تسلم أوراق من جهة رسمية، وتبين أنه محضر من النيابة. انزعج لتحسن حال الموظفين هكذا، ثم أدرك معنى الانزعاج الحقيقي عندما اطلع على المدَوَّن داخل هذه الأوراق.

* دعوى ضده لقيامه بالتدخين في الطريق العام والإضرار بصحة المواطنين.

* إخطار بسحب رخصة القيادة منه -نهائيًا- لأن بصره لا يسمح، وتعويض صاحب السيارة المحطمة بمبلغ كبير.

* دعوى من زميل له في العمل يتهمه بإيذائه معنويًا لأنه دخل عليه غاضبًا، وهذا أدى لتأثر العمل.

وأخرى من زميلة لأنها سمعته وهو يلعن دولتهم الحبيبة.

*دعوى من الفتاة الجميلة لتحرشه بها، ومعها كل الركاب شهود يسبقهم تسجيل الفيديو الذى تم تصويره بالكاميرا المثبتة داخل سيارة السيرفيس.

وقبل توقيعه باستلام الأوراق، طلب منه الموظف بطاقة تحقيق الشخصية ليتأكد أنه الشخص المطلوب، فانزعج مجددًا عندما وجد البطاقة بلا عنوان له، ودون العلامة المائية للأهرامات وأبي الهول.

المعاناة لا تعترف بالتوقيت

(مساءً)

يكاد يقفز من فرحته وهو يسير بينهم منفرج الأسارير، يتطلع إلى وجوههم المبشرة فيرى المحبة والصفاء، وإلى أيديهم فيرى عظمة الشعور بالمعدومين وروعة المساعدة، فينشرح قلبه المملوء ببهجة وروحانيات شهر الصيام، وتزداد سعادته ويجدد عهده بأن يبقي عضوًا بقافلة الخير هذه إلى الأبد.

جاء ترتيبه في التوزيع، تناول (الأكياس) وابتسم لأعضاء القافلة المشجعين له، غاص في مدخل البيت المظلم مملوءًا بالرهبة، يراجع ما حفظه من كلمات وابتسامات وردود لجمل متوقع سماعها، ثم طرق الباب...

أصابته كل أسهم الصمت في مقتل، وجحظت عيناه، وانتفض كأنها صاعقة الموت، ثم صرخ بقوة ودموعه تتساقط، وألقى بـ (الأكياس)

في وجهها هي وأطفالها، وخرج مهرولًا يصرخ ويبكي.

صرخته أفزعت زملاءه في القافلة، وقبل أن يدخلوا البيت كان هو خارجًا يضرب كل مَنْ يحاول أن يستوقفه، وصراخه يتزايد وهو يجري في الشارع كمجنون هارب، والقافلة وجموع المارين في الشارع ينظرون إليه بأسى حتى ابتلعته الزحمة، لا يعلم أحد أين ذهب!

(صباحًا)

تركت جيرانها -المعدومين مثلها- وجهًا لوجه مع الطامة الكبرى، واجتهدت حتى سُمح لها بمقابلة السيد وكيل النيابة، وقالت له:

«قتلت أطفالي الثلاثة -عن عمد- ودفنتهم فجر اليوم، وأطلب الإعدام، وأرجوك أن تساعدني أن يكون في أسرع وقت».

تلعثم وكيل النيابة واندهش، وقبل أن يتفوه، أكملت:

«لست مجنونة يا معالي الباشا، هذه بطاقتي الشخصية وبها عنواني، ويمكن أن تتأكد من صحة القتل لو أرسلت أي فرد إلى هناك، القرية كلها علمت ما حدث».

«ورجاءً لا تسألني: لماذا قتلتهم..؟!».

زيف

(١)

لم تمكنه صحته الواهنة وجسده الممتلئ من إتمام صلاة القيام في المسجد، فقام بمساعدة صبي يافع والتزم المشي كعادته بجواره لضعف بصره وعدم قدرته على تمييز الأشياء والألوان.

استقبلته زوجته العجوز، وساعدته حتى جلس في مكانه المفضل أسفل النافذة الخشبية، وطلب منها شايًا.

(٢)

ذهبت والحيرة تعصف بها، ماذا ستفعل؟

هو يعلم أن بيتهم لا يحتوى على أي شيء إلا أجزاء من مفروشات تالفة تغطي أجزاء من الأرض الترابية وبعض الأواني الصدئة التي نادرًا ما يتم استعمالها، ومع ذلك طلب الشاي!

ذهبت تفتش في بقايا وجبة (الإفطار) التي ترسلها مائدة الرحمن بالمسجد يوميًّا لهم، لعلها تجد فيها شيئًا تقدمه له بدلًا عن الشاي، فعادت بمزيد من الأسى لعدم وجود شيء.

(٣)

أخرج أوراقه العتيقة وظل يتفحصها قدر الإمكان على بصيص الضوء القادم من (فانوس) الشارع، يقلب الأوراق -التي حفظها عن ظهر قلب- وقلبه يتوجَّع.

كيف يصفونه بالجبن وهو مَنْ وقف أمام كل سلطات الاستبداد والقهر؟

ولماذا يرمونه بالخيانة وهو مَنْ وهب نفسه للوطن وحريته؟

كيف؟ ولماذا؟

ولماذا؟ وكيف؟!!

ظلت الأسئلة المتلاطمة تتهاوى على روحه المنكسرة، لكنه حافظ على تحجر الدموع في مقلتيه حتى يتألم في صمت. شعر بزوجته تلقي عليه النظرات، فأدرك حيرتها وخوفها على جرح مشاعره متذكرًا الخواء الدائم وحالة الفقر المدقع لهم.

زاده الموقف ألمًا وتجدد قلبه بحب إضافي لزوجته الصابرة، وقرر إنقاذها من حيرتها، فقال: «لا أريد شايًا، استرحت وسأعود لاستكمال الصلاة بالمسجد.

(٤)

استوقفه شاب وهو في طريقه للمسجد، وقال له:

«أنت (عرابي)؟»

«نعم، من أنت؟»

«أنا ابن لهذه البلد التي جلبت لها العار بخيانتك وجبنك».

«أنت تتهمني ظلمًا وافتراء، وقفتي كانت ضد الاستبداد والظلم، وحياتي كانت للبحث عن الحرية والكرامة».

«أنت من صناعة الإنجليز، جلبت لنا الاحتلال وأخذت ثمن خيانتك بالنعيم خارج البلاد».

«هذه هي محصلة اجتهادهم؟!»

«ماذا تقصد؟»

«أقصد زيف الذين فعلوا كل شيء كي يستقر في أذهانكم أن الثورة هي الفوضى والفتنة، وأن الجنة هي الاستقرار، وأن الشجاعة ستار للخيانة، وأن طالب الحرية عميل ومتآمر، اذهب يا بني فأنا مشفق عليك.

«سأذهب لأنني لا أريد رؤيتك يا ابن الكلب يا خنزير!»

(وبصق في وجهه ثلاث مرات أمام جموع كثيرة من الناس وانصرف).

(٥)

عاد لمنزله صامتًا يجاهد لرؤية أي شيء ولو يده!

جلس في مكانه تحت النافذة، ثم تمدد نائمًا، وزوجته مازالت تلح عليه:

«ماذا بك؟ ماذا حدث؟»

دون أن تأتي منه أية إجابات، ثم أغمض عينيه فخرجت بعدما تأكدت أنه قد نام.

(٦)

يومان من البكاء وهي مازالت عاجزة، ماذا تفعل؟

تخشى أن يتعفن جثمانه -لا نقود معها- تبكي مصيبتها والناس بالخارج يستعدون لاستقبال العيد.

(٧)

كتبت إحدي الصحف الكبري بخط صغير في أقصى يسار صفحة داخلية:

(علمنا أن المدعو (أحمد عرابي) صاحب الفتنة المشهورة قد توفي منذ أيام).

محل إقامة

انتفض مذعورًا من غرابة الرؤيا ومن تكرارها، قام مشدوهًا وأضاء كل أنوار البيت وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، استيقظت زوجته مندهشة مما يحدث، سألته: «ماذا تفعل؟» نظر إليها ولم يرد، حدّجته غاضبة وأعادت سؤالها، تجاهلها واستمر في إضاءة الأنوار بما فيها أنوار المطبخ ودورة المياه، ظلت تشاهده متعجبة، وبعدما انتهى من الإضاءة ذهب لحجرة الصالون وجلس في منتصفها وأشعل سيجارة، وقفت أمامه، وسألته: «ماذا بك؟»، لم يجاوبها أيضًا وتركها واقفة، وترك السيجارة وقام وفتح النافذة على مصراعيها، فخرجت مسرعة غير مدركة غرابته، هل يعقل أن يفتح النافذة هكذا وهي بقميص النوم وهو يعلم أن أمامهم شباب يتربصون بها طوال الوقت؟!

لم يعبأ بصراخها من خارج الصالون، ارتاح لخروجها، فقام يكمل سيجارته وهو ينظر على المارة من النافذة، استعذب نسمات

الصباح الخالية من التلوث، لكنه تلذذ بالدخان فأشعل سيجارة جديدة بمجرد قرب انتهاء الأولى، وابتهج لرؤية طفلة جميلة ذاهبة للمدرسة، تأكل وتغني في طمأنينة، فظل ينظر إليها حتى غابت عن حدود بصره.

رويدًا رويدًا بدأ الشارع يمتلئ بالمارة والباعة الجائلين والسيارات، وبدأ قلبه يعود للذعر، وبدأت عيناه تستجيب لما يخشاه، فجأة وجدهم جميعًا تحولوا..

(بيض) يمشي في الشارع، و(بيض) يجر عربته الخشبية، و(بيض) يصافح (بيضًا)، و(بيض) يقود سيارات..!

أصابه الحزن لما يحدث، أغلق النافذة وجلس يفكر.

ما الذي يحدث؟ لماذا يرى الناس فجأة يتحولون إلى (بيض)؟ وكيف تنتقل رؤية المنام إلى أرض الواقع؟

هدأ روعه قليلًا، فغادر الصالون إلى الصالة، ألقى نظرة على زوجته المنهمكة في إعداد الإفطار في مطبخها الضيق، واطمأن لخمود ثورتها، تحمم بمياه باردة وخرج منتعشًا، مازال هناك متسع من الوقت يسمح له بالإفطار أمام شاشة التلفاز قبل موعد العمل، كان قد هيأ نفسه لطوي كل ما يتعلق بالرؤية العجيبة، تناول إفطاره بنهم وهو يستمع لنشرة الأخبار الصباحية، أخبار لا تحمل إلا همومًا جديدة وتصريحات روتينية لا تسمن ولا تغني، وقبل أن يهم بتغيير النشرة

وجد أن المذيع قد تحول إلى (بيضة) تتحدث، فاقشعر بدنه وانتفض مجددًا، قاوم شعوره، وقام بتغيير المحطة فوجد نفس الأمر، (بيضة) تغني ويرقص خلفها (بيض)، فغير المحطة فوجد (بيضًا) يلعب مباراة كرة أمام (بيض)، فقام غاضبًا وغادر منزله.

تسكع في الشوارع يحدث نفسه، ثمة خطأ ما لم أتوصل إليه، ما الذي يحدث؟

لم يصل إلى أية إجابات، ظل مستسلمًا لموقعه بين أمواج الحيرة المتبارية على جثته، ابتاع سجائر إضافية وذهب لمقر عمله، العمل ضوضاء، صراخ، وشكاوى، واستغاثات، لكنه انهماك بالنسبة له، ارتاح لهذا، سينسيه هذا الصخب ما به، وسيغرق لا محالة في أجواء العمل ويعود يقظًا لمواجهة استفزاز جمهور المواطنين.

وجد قهوته تنتظره على مكتبه، تجرعها وبدأ في العمل، التعامل مع الجمهور ليس بالشيء الهين، داعبته في البداية امرأة بدينة عليها من البقايا ما يؤكد إنها كانت جميلة يومًا ما، ابتسم واستعاد ثقته في نفسه واطمئن مرة أخرى، حدث نفسه: ما سبق من رؤى غامضة بالتأكيد زيف شيطاني، تكررت المداعبات من سيدات أخريات وصادف صديقًا قديمًا، وكان يومًا فريدًا، أن يقترب اليوم من نهايته دون مشاجرات أو سباب مع المواطنين فهذا إعجاز، استدعاه مديره فذهب إليه، بمجرد دخوله لمكتبه الأنيق عاد ليهتز عندما وجد (بيضة) ضخمة تجلس أمام

المكتب، أصابه ضيق وتمنى أن يبكي، تكلم المدير كثيرًا، يسمع جيدًا ما يقال لكنه غير مستوعب ما يحدث له، وغادر المكتب حزينًا، ازداد ضيقه عندما وجد أن زملاءه قد تحولوا إلى (بيض)، هرول لنافذة التعامل مع الجمهور فوجد صفًّا كبيرًا من (البيض) يقف في انتظاره!

كاد أن يبكي، عاد لمديره مسرعًا، طلب السماح له بمغادرة العمل حالًا لسبب طارئ، فوافق!

خرج منكسرًا، بالكاد يقوى على المشي، لم يصمد طويلًا وجلس على رصيف نظيف إلى حد ما، أنهكه التفكير والحزن، تذكر طبيبًا نفسيًّا صديقًا قديمًا له، فقرر الذهاب إليه في الحال، قص عليه المأساة بكل تفاصيلها.

فقال له الطبيب: «عليك بتغيير محل إقامتك وحالًا!»

لغة الإشارة

(١)

جاء تعارفنا روتينيًّا عقيمًا -بحكم التعامل- ونفوري منها كان جليًّا ومتصاعدًا، لا يوجد فيها شيء يجذب ولا مبرر لنفوري هذا!

تعرضت لوعكة صحية -بسيطة- وفوجئت بها تسأل وتطمئن عليّ، فاختفت الحدة في تعاملي معها تقديرًا لشعورها الطيب، بل اجتهدت كثيرًا لصناعة ابتسامات جاهزة أستعين بها في الحديث.

إلى أن جاءت تهنئني على مجموعتي القصصية وتطلب توقيعي، ندمت على تجهمي في وجهها طيلة الأوقات الفائتة، وأخبرتها بسعادتي، بل وذهبت كي نتناقش في تفاصيل بعض القصص.

(٢)

في لقائنا الثاني رأيت وجهها يشع نورًا جعلني أتلعثم، تنبهت لهذا

مبكرًا، أخبرتها برغبتي في الكتابة عنها، فتحجرت ملامحها ورأيت في عينيها شيء تتهرب -هي- منه!

(٣)

بعد أن ابتعدت -هروبًا- من شعوري وأشواقي، حاصرتني -هي- بوجهها النضر الرائق وبالأسئلة وتبادل الكتب، تمتلك حدسًا رائعًا بدأت أتأمله تدريجيًّا والمفترض أننا سنتناقش في رواية ما اليوم، لكنها بدأت حديثها عن لغة الإشارة فانقبض قلبي وتوقع حدوث ما حدث.

قالت: «أريد الاحتفاظ بك فقط!»

ساد صمت لمدة لا أتذكرها، دقيقة كانت أم عامًا، همّت في استئناف ما كانت تعده سلفًا، فاستوقفتها قائلًا:

«أنا أشد حرصًا»، وسألتها مستعينًا بنفوري القديم: «هل صدر مني ما يوحي بغير ذلك؟»

فانكسر ثبات عينيها --وربما قلبها- وقالت بحنان: «لا».

سألتني قبل انصرافي بنبرة خاملة: «ستكتب عني قصة كما وعدتني في كتابك الجديد؟»

(٤)

أحبها أم هو مجرد انجذاب؟! أحبها أم مجرد إعجاب؟! أهو حب أم

ارتياح؟! أهو حب أم مجرد شيء مختلف؟! أحببتها أم أنني أحاول ارتداء شيء أعجبني فقط؟! أحببتها أم أنني أتقمص شخصية المحب؟

خرج الحب عاملًا مشتركًا في كل أسئلتي، فقررت كتابة القصة..!

(٥)

التقينا فأحببتها فرفضتنى ورفضتها..!

(٦)

سألت نفسي: «أربع كلمات بهما فعلين متضادين، هل يصلحون قصة قصيرة؟ هل سترحمني أسهم النقاد؟ هل ستفهمني وأفهمني؟!

في السادسة صباحًا...

في السادسة صباحًا من ذلك اليوم الملبد بالغيوم، وبينما كانت السماء ترتدي الألوان الضبابية الغاضبة المنذرة بأجواء صقيع مؤلمة.

تقف أمام دولابها الفاخر المكتظ بالملابس، تتسكع وتفكر: ترتدي ملابس داخلية ألوانها نفس ألوان ملابسها الخارجية؟ أم العكس سيكون أمتع؟

في السادسة صباحًا من ذلك اليوم..

يهرول فرحًا بعد اكتشافه هذا الكنز الثمين؛ صندوق قمامة كبير يجاور فندقًا فاخرًا هكذا -حتمًا وبكل تأكيد- سيجد فيه بقايا طعام تصلح له ولأسرته لمدة أيام.

عليه فقط أن ينزلق بنصف جسده العلوي داخل الصندوق، على أن يُبقي الجزء الآخر حارسًا لدراجته الصدئة المحطمة.

في السادسة صباحًا من ذلك اليوم..

تجاهد وهي تتكئ على عصا خشبية حتى تصل للمطبخ لتعد وجبة الإفطار لحفيديها، تدعو الله كثيرًا أن يزرقها القوة للعدو سريعًا حتى لا تقع عيناها على صورة ابنتها الوحيدة داخل الفستان الأبيض، ثم على نعي (الأهرام) لوفاتها مع زوجها عقب هذا الحادث الأليم، تتألم، لماذا لا تساعدها العصى؟!

في السادسة صباحًا من ذلك اليوم..

يستعد لزيارة زملائه المحبوسين احتياطيًّا بتهمة إثارة الشغب والتظاهر، على أن يعود لاستكمال رسم الجرافيتي، مؤمنًا بأن المقاومة عبر الرسم خطوة حضارية تساعد كثيرًا للوصول إلى ربيع الحرية الحقيقي.

في السادسة صباحًا من ذلك اليوم..

تتأنق وتتجمل، وزوجها ينتظرها ليذهبا سويًّا للعمل، تهتم بالحلي والإكسسوار وتناسق الألوان والعطور، يشاهدها -زوجها- وهو يضحك لها، يذكرها بمغامراته على الفراش منذ ساعات فتضحك له، وفجأة تتذكر الذي يموت ألمًا لفراقها وهي تعلم عذابه بسببها وحبه الحقيقي لها، لكنها تكمل زينتها، لم يعد يؤلمها أنه -معهما- في العمل، ولم تعد تبالي بنظراته وهو بائس منكسر من خلف الزجاج ينتظر قدومها.

في السادسة صباحًا من ذلك اليوم..

كان قد انتهى من قراءة ورد القرآن اليومي، ويطمئن على أخويه نائمين في سكينة، ويخرج كالعادة حائرًا؛ هل يدعو ربه أن يرحمه من بيع الخبز على الأرصفة وأن يجد وظيفة بمؤهله الجامعي؟ أم يدعو الله أن يغض بصره عن زملائه الذين تبوءوا الوظائف الكبري حتى لا يدخل الضيق قلبه ويستطيع الاستمرار في بيع الخبز لمدة ١٢ ساعة كاملة، وبذلك يضمن أن يُبقي أخويه نائمين في سكينة ليوم جديد؟!

في السادسة صباحًا من ذلك اليوم..

كانت أشياء كثيرة تحدث لا يتوقعها أحد!

شكر

دعوت ربي أن يرزقني الحب الصادق والإخلاص والوفاء..

فكنتم بجوارى..

(عصام عبد الرحيم)

(محمد يحيى زكي)

(مصطفى جمال)

(كريم أنور)

(محمد فتحي حمتو)

(محمد صلاح)

(أحمد نبيل)

و شكر خاص إلى..

الأستاذ/أيمن حنفي

الأستاذ/محمد رمضان

الأستاذ/ أحمد حمدي

المصور المبدع/أحمد هشام

و الفنان/محمد عيد

أحبائي، هذا ليس مدحًا أو شكرًا، إنما اعتراف بالجميل..

محمد أيوب

الفهرس

الإهداء... 5
انتهــاء.. 7
جمال 11
شـارع 217 سابقـًا 17
الرسالة 21
الجريمة الأولى.. ! 24
فهل سيأكلها الآن..؟! 33
عند محطات الظلم..! 35
الكوخ 44
دون إشارات للمرور.. ! 47
اعتراض 49
إيه يا بلاد يا غريبة؟! 51
الخيار 55
حليمًا.. كان! 57
بين اللامعقول واللاموجود 60
المعاناة لا تعترف بالتوقيت 62
زيف 64
محل إقامة 68
لغة الإشارة 72
في السادسة صباحًا... 75